دراسات في تاريخ المدن الفراتية :

(١)

قرقيسيا

محمد ناشد مشوح

تقع على ضفة الفرات الشرقية عند مصب نهر الخابور في الفرات على مقربة منها رحبة مالك بن طوق وتبعد عن دير الزور ٣٥ كم شمال شرقي ٠

كان اسمها (تاباكان) ثم (شوبورا) ثم (سوكي) في عهد الآشوريين ٠

سماها اليونان (تركسيون) وسماها الرومان (سيرسيوم) وسماها العرب عندما فتحوها (قرقيسيا) فيها معالم أقنية أثرية ٠ كانت في عهد البابليين والرومان والعرب عامرة زاهرة كثيرة السكان وافرة الثروة ٠

ذكرها المؤرخون فقال ابن هوقل : لها بساتين وأشجار وفواكه وهي نزهة ٠ وقال ياقوت : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور في الفرات فهي مثلث بين الخابور والفرات ٠ سميت بقرقيسيا بن طهمورث الملك ٠ كان عدد سكانها في العهد الروماني (٦٠) ألفاً ٠

وقال حمزة الأصفهاني : قرقيسيا معرّب كركيسيا وهو مأخوذ من كركيس وهو اسم لارسال الخيل المسمى بالعربية الحلبة ٠ وقال بطليموس: طولها ٦٤ درجة و ٤٥ دقيقة وعرضها ٣٥° وهي من الاقليم الرابع طالعها السماك الأعزل ٠

لعبت قرقيسيا دورا في تاريخ المنطقة السياسي وقال ياقوت انها كانت مسرحاً للحوادث في عهد العباسيين ٠

نفذ اليها سعد بن أبي وقاص جيشاً عام ١٦ هـ وهو بالمدائن على رأسه عمرو الزهري ولما فتح عياض بن غنم الجزيرة سنة ١٩ هـ وجه حبيب بن مسلمة الفهري الى قرقيسيا ففتحها على مثل صلح أهل الرقة ٠ فلما مات عياض وولي الجزيرة عمير بن سعد وولي

رأس عين سلك الخابور وما يليه حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فصالحهم على مثل صلحهم الأول ٠

ـ عندما هادن عبدالملك بن مروان امبراطور البيزنطيين حينما أغار على الثغور الاسلامية سنة ٧٠ هـ وخرج جيشه من دمشق حتى وصل الى أراضي الفرات لكنه رجع الى الشام عند ثورة عمر الأشدق فقتله ثم رجع الى العراق وحاصر زفر بن الحارث زعيم القيسية في قرقيسيا الذي كان يدعو لابن الزبير فصالحه وانضوت القيسية تحت لواء عبدالملك ٠

كما أن زفر بن الحارث الكلابي خرج الى قرقيسيا بعد أن انقضى يوم مرج راهط وتحصن بها وجعل يغير على بلاد كلب التي كانت تفعل ذلك بقيس وكان عمير بن الحباب السلمي يغير مع زفر ببني تغلب ٠

ـ دخل زفر بن الحارث قرقيسيا هارباً من مروان بن الحكم وأقام عمير بن الحباب شيئاً على طاعة بني مروان وأقبل ودخل قرقيسيا على زفر فأقام معه بعد قتل عبيدالله ابن زياد وأقبل زفر يبكي قتلى مرج راهط وهي الحرب بين قيس وكلب ويقول :

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط ... بمروان صدعاً بيننا متنائيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا ... ويترك قتلى راهط هي ما هيا
فقد تنبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هيا
فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا
أبعد ابن صفر وابن عمرو تتابعا ... ومصرع همام أمني الأمانيا

فأجابه ابن المخلاة الكلبي :

لعمري لقد أبقت وقيعة راهط ... على زفر داء من الداء باقيا
تبكي على قتلى سليم وعامر ... وذبيان مغرورا وتبكي البواكيا

وأقبل عمير يخطر فخرج من قرقيسيا يتطرف بوادي كلب فيغير عليها وعلى من أصاب من قضاعة وأهل اليمن ويحض كلباً ومعه تغلب وقد حمل عليه فوارس من كلب يطلبونه ولحقه مولى لكلب يقال له (شقرون) فجرح عمير وهرب حتى دخل قرقيسيا الى زفر ٠

استنزل عبدالملك بن مروان من قرقيسيا زفر بن الحارث الكلابي وأقعده معه على سرير ورآه ابن ذي الكلاع فبكى فقال له عبدالملك : ما يبكيك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين وكيف لا أبكي وسيف هذا يقطر من دماء قومي في طاعتهم لك وخلافه عليك ثم هو معك على السرير ٠ وبلغ الأخطل ذلك فدخل على عبدالملك وأنشد شعرا فقال له عبدالملك : ما أخرج هذا منك يا أبا مالك الا خطة في رأسك قال : أجل والله يا أمير المؤمنين حين تجلس عدوالله هذا معك على السرير ، وهو القائل بالأمس :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فضرب عبدالملك صدر زفر برجله فقلبه عن السرير وقال : اذهب الله حزازات تلك الصدور • وقال زفر : ما أيقنت بالموت قط الا تلك الساعة حين قال الأخطل ما قال •

ـ نزل عمران بن حطان بن ظبيان المكنى أبا سماك من شعراء الشراة والمقدمين بمذهبهم ، بزفر بن الحارث الكلابي بقرقيسيا فجعل شباب بني عامر يتعجبون من صلاته وطولها وانتسب لزفر • فقدم على زفر رجل من أهل الشام قد كان رأى عمران بن حطان بالشام عند روح بن زنباع الجذامي من سمار عبدالملك بن مروان ، فصافحه وسلم عليه • فقال زفر للشامي : أتعرفه قال : نعم! هذا شيخ من الأزد • فقال له زفر : أزدي مرة وأوزاعي أخرى ؟ ان كنت خائفاً آمناك وان كنت عائلا أغنيناك • فقال : ان الله هو المغني وخرج من عنده وهو يقول :

ان التي أصبحت يعني بها زفر أعيت عناء على روح بن زنباع
أمسى يسائلني حولا لأخبره والناس من بين مخدوع وخداع
حتى اذا انجذمت مني حبائله كف السؤال ولم يولع باهلاع
فاكفف كما كف روح انني رجل اما صريح واما نفعة القاع
أما الصلاة فاني غير تاركها كل امرىء للذي يعني به ساع
فاكفف لسانك عن هزي ومسألتي ماذا تريد الى شيخ لأوزاع
أكرم بروح بن زنباع وأسرته قوماً دعا أوليهم للعلا داع
جاورتهم سنة فيما دعوت به عرضي صحيح ونومي غير تهجاع
فاعمل فانك منعيٌّ بحادثة حسب اللبيب بهذا الشيب من ناع

ثم خرج فنزل بعمان ثم بجانب الكوفة حتى مات •

ـ أغار زفر بن الحرث الكلابي على أهل المصبح وقد أصاب أول النهار أهل ماء يقال له (خصيف) وفيه سيد بني الجلاح مصاد بن المغيرة بن أبي جبلة فأسره فأتى به قرقيسيا ثم من عليه وقتل عفيف حسان بن حصين من بني الجلاح • ثم مضى زفر الى المصبح فاجتمع من بها الى عمير بن حسان بن عمر بن جبلة فامتنعوا فقال لهم زفر : اني لا أريد دماءكم فاعطوا بأيديكم فأبوا وقاموا فقتلت منهم جماعة كثيرة وقتل معهم رجلان من تغلب • وكان قتلى يوم المصبح من كلب ثمانية عشر رجلا والتغلبيين وبقي الماء ليس فيه الا النساء فلما انصرف عنهم زفر أراد النساء أن يجررن القتلى الى بئر يقال له كوكب وقد وارت القليب أم عمير بن حسان كيسة بنت أبيّ رجال حميد بن حريث بن بجدل الذي لما علم ما حل بقومه أتى تدمر ليجمع أصحابه وليغير على قيس • وقد قتل

مطر بن عوص خليفة حميد بن حريث في تدمر النميريين وكانوا ستين رجلا • ولما بلغ زفر قتل النميريين بسط على كل من أدرك من كلب واستحل الدماء وأخذ في وادٍ يقال له وادي الجيوش وقتل فيه أكثر من خمسمائة ولم يلقه حميد ثم انصرف الى قرقيسيا وذكر بعض بني نمير أن زفر أغار على كليب يوم حفير ويوم المصبح ويوم الفرس فقتل منهم أكثر من ألف رجل ثم أغار عليهم في يوم الاكليل فقتل منهم مقتلة عظيمة منهم حسان بن حصين من بني الجلاح فقالت امرأة من بني كلب ترثيهم :

أبعد من وليت في كوكب يا نفس ترجين ثواء الرجال

ـ لما ألح عمير بن الحباب بالغارات على كلب رحلت حتى نزلت غوري الشام • فلما صارت كلب بالموضع الذي صارت قيس انصرفت قيس في بعض ما كانت تنصرف من غزو كلب وهم من عمير فنزلوا بثنيّ من أثناء الفرات بين منازل بني تغلب وكان (دويل) من فرسان بني تغلب ولأمه من بني تميم أعنز أخذها غلام من بني الحريش فشكوا ذلك الى عمير فلم يشكهم وقال معرّة الجند • ولما رأى أصحابه ذلك وثبوا على بقية أعنزها وأخذوها وأكلوها • ولما أتاها دويل أخبرته بما لقيت لذا جمع جمعاً وأغار على بني الحريش ،فلما بلغ ذلك قيساً أغارت على بني تغلب بازاء الخابور فقتلوا منهم ثلاثة نفر واستاقوا خمسة وثلاثين بعيرا • فخرجت جماعة من تغلب فأتوا زفر بن الحرث وذكروا له القرابة والجوار وهم بقرقيسيا وقالوا : أتينا برحالنا وردوا علينا نعمنا فقال : أما النعم فنردها عليكم أو ما قدرنا لكم عليه ونكمل لكم نعمكم من نعمنا ان لم نصبها كلها وندّي لكم القتلى قالوا له : فدع لنا قريات الخابور ورحل قيساً عنها فأبى ذلك زفر وأبوا هم أن يرضوا الا بذلك ثم جمعوا جمعاً وأغروا على ما قرب من قرقيسيا من قرى القيسية فلقيهم عمر بن الحباب وكان النميري الذي تكلم عند زفر أول قتيل وهزم التغلبيين • وقد دخل اياس بن الجزاز وكان شريفاً من عيون تغلب ، دخل قرقيسيا لينظر ويناظر زفر فيما كان بينهم وقتله يزيد بن بحزن القرشي فتذمم زفر وكان كريماً لا يحب الفرقة ، وأرسل الى الأمير ابن قرشة بن عمرو وقال له : هل لك أن تسود بني نزار فتقبل مني الدية عن ابن عمك ؟ فأجابه الى ذلك • وكان قرشة من أشراف بني تغلب • كما وجه زفر قوماً الى حي من ربيعة أكثرهم نصارى وأمر أن يرفقوا بهم فأتوا أخلاطاً من بني تغلب من مشارق الخابور فأعلموهم الذي وجهوا به فأبوا عليهم فانصرفوا الى زفر فردهم وصار اليهم عمير بن الحباب فلقيهم قريباً من ماكس على شاطىء الخابور بينه وبين قرقيسيا مسيرة أيام فأعظم فيها القتل • وقد استمر القتل ببني عتاب بن سعد والنمر وفيهم أخلاط تغلب فأسر القطامي الشاعر وأخذت ابله وأصاب عمير وأصحابه شيئاً كثيرا من النعم، وقتل عبدالله بن شريح رئيس تغلب كما قتل أخوه ومجاشع بن الأجلح وعمرو بن معاوية وغيرهم كثير وجعل عمير يصيح بهم: ويلكم لا تستبقوا أحدا • قال الصفار :

تمنيت بالخابور قيساً فصادفت منايا لأسباب وفاق على قدر

وقال جرير :

نبئت أنـك بالخابـور ممتنـع ثم انفرجت انفراجاً بعـد اقدار

وقال زفر بن الحرث يعاتب عميرا بما كان منه في الخابور :

ألا مـن مبلـغ عنـي عمـيراً رسالـة عاتـب وعليـك زار
أتتـرك حـي ذي كلـع وكلـب وتجعـل حـر نابـك في نزار
كمعتمد علـى احدى يديـه فخانتـه بوهـي وانكسـار

ولما أسر القطامي أتى زفر بقرقيسيا فخلى سبيله ورد عليه مائة ناقة فقال يمدحه:

قفي قبـل التفرق يا ضباعـا ولا يـك موقف منـك الوداعـا
قفي فـادي أسـيرك ان قومـي وقومـك لا أرى لهم اجتماعـا
ألـم يحزنـك أن جبـال قيس وتغلب قـد تبيانت انقطاعـا
فلا تبعـد دمـاء بنـي نزار ولا تقـرّ عيونـك يـا قضاعـا
ومن يكـن استنام الى التوقـي فقـد أحسنت يا زفـر المناعـا
أكفـراً بعـد رد المـوت عنـي وبعـد عطائك المائـة الرتاعـا
فلـم يبـد سواك غـداة زلـت بي القدمـان لم أرج اطلاعـا
من البيض الوجوه بنـي نفيـل أبـت أخلاقهـم الا اتساعـا

ثم قال :

يا زفر بن الحرث بـن الأكـرم قد كنت في الحـي قديم المقـدم
وحقـن الله بكفيـك دمـي من بعد ما جف لسانـي وفمـي

وقـال :

يـا نـاق خبـي خبيـاً مـزورا وقلّبـي منسمـك المغبـرا
وعارضي الليـل اذا مـا اخضرّا سـوف تلقـين جـوادا حـرا
سيـد قيـس زفـر الأغـرّا ذاك الـذي بايـع ثـم بـرّا

وقـال :

كـان في المركـب حـين راحـا بـدراً يزيـد البصر انفضاحـا
ألا ترى ما غشـى الأكراحـا وغشـى الخابـور والأملاحـا
يصفعون بالأكـف الراحـا

وقـــال :

من مبلغ زفر القيسي مدحتـــه ... مـن القطامـي قولا غـير افنـاد
فلـــن أبـدل بالنعمـاء مشتمـة ... ولـــن أبدل احسانـاً بافســـاد
فان هجوتـك مـا تمت مكارمتي ... وان مدحت فقد أحسنت اصفادي
لولا كتائب من عمرو يصول بها ... أرديت يا خـير من يندو له النادي
اذ يعتريك رجال يسألون دمـــي ... ولو أطعتهـــم أبكيـت عـوّادي
والصيـد آل نفيـل خير قومهـم ... عند الشتـاء اذا مـا ضنّ بالزاد
المانعون غـداة الـروع جـارهم ... بالمشرفية من قاصٍ ومـــن نـاد
فان قدرت على خـير جزيت بـه ... والله يجعـل أقوامـاً بمرصـــاد

ـ عرض قوم من أهل الحدراء لابن الزبير الأسدي في طريقه من الشام الى الكوفـة وقد نزل بقرقيسيا فاستعدوا عليه زفر بـن الحرث الكلابي وقالوا انه أموي الهـوى . وكانت قيس يومئذ زبيرية وقرقيسيا وما والاها في يد ابن الزبير فحسبه زفر أياماً وقيده وكان معه رفيق من بني أمية يقـال لـه أبوالحدراء فرحـل وتركـه في حبسه أياماً ثـم تكلمت فيه جماعة من مضر فأطلـق فقال في ذلك :

أغـاد أبـو الحدراء أم مستروح ... كذاك النـوى مما تجـد وتمزح
لعمري لقـد كانت بلاد عريضـة ... لي الروح فيهـا عنـك والمنسرح
ولكنه يدنو البغيض ويبعد الحبيـــــب وينأى في المـزار وينـزح
ألا ليت شعري هل أتى أم واصل ... كبول أعضوهـا بسـاقيّ تجـرح
اذا ما صرفت الكعب صاحت كأمها ... صريف خطاطيف بدلوين تمنـح
تبغي أباهـا في الرفاق وتنثنـي ... وألوى به في لجـة البحر تمسـح
أمرتحـل وفـد العراق وغودرت ... تحـن بأبواب المدينـة صيـدح
فانـك لا تدرين فيمـا أصابنـي ... أريثك أم تعجيل سـيرك أنجـح
أظـن أبو الحدراء سجني تجارة ... ترجى ومـا كل التجـارة تربح

ـ قال سعد ابن أبي وقاص وقد أنفذجيشاً عـام ١٦ هـ وهو بالمدائـن الى هيـت وقرقيسيا ورئيسهم عمرو بن مالك الزهري فنزلوا على حكمه فقال عند ذلك :

ونحـن جمعنا جمعهم في حفـيرهم ... بهيت ولم نحفـل لأهـل الحفائر
وسرنا علـى عمد نريد مدينـة ... بقرقيسيا سير الكماة المساعـر
فجئناهم في دارهم بغتـة ضحىً ... فطاروا وخلوا أهل تلك المحاجـر
فنادوا الينا مـن بعيد بأننـا ... ندين بديـن الجزيـة المتواتـر
قبلنـا ولم نردد عليهم جزاءهم ... وحطناهـم بعد الجزا بالبواتـر

وقال عمرو بن مالك الزهري في جيش سعد بن أبي وقاص عندما واقع أهل قرقيسيا:

تطاولت أيامي بهيت فلم أحم وسرت الى قرقيسيا سير حازم

فجئتهم في غرة فاحتويتها على عنن من أهلها بالصوارم

وقال الشاعر :

لعنْ سخطة من خالقي أو لشقوة تبدلتُ قرقيسياء من دارة الردم

ـ وقد صالح أهل قرقيسيا أبو طاهر سليمان أمير قرامطة البحرين على البصرة والكوفة سنة ٣١٥ هـ عندما وصل الى الرحبة، بأن يدفعوا له جزية سنوية خوفاً منه ثم استولى القرامطة على قرقيسيا عام ٩٢٨ هـ

مدن ونواحي وقرى قرقيسيا :

١ ـ **الشيبانية :** قرية قرب قرقيسيا من نواحي الخابور ٠

٢ ـ **الشهلية :** بلدة قرب قرقيسيا على نهر الخابور بينها وبين ماكسين ٠

٣ ـ **جحشية :** من قرى قرقيسيا الكبرى كالمدينة بينها وبين المجدل نحو أربعة أميال ٠

٤ ـ **الدارة :** مدينة قرب قرقيسيا من أعمال الخابور ٠ قال ياقوت : الدارة في أصل كلام العرب كل جوبة بين جبال في حزن أو سهل ، وقال الأصمعي الدارة رمل مستدير في وسطه فجوة وهي الدورة ٠ وقال ابن الاعرابي : والدارة دارة القمر وكل موضع يدار به شيء يحجزه فاسمه دارة ويقال لمسكن الرجل دارة ٠

المنتسبون الى قرقيسيا :

١ ـ دعبَل بن علي بن رزين بن سليمان الخزاعي أبو علي الشاعر المشهور المجيد لكنه كان بذيء اللسان مولعاً بالهجو والحط من أقدار الناس وهجاء الخلفاء ٠ كان يقول: لي خمسون سنة أحمل خشبتي على كتفي أدور على من يصلبني عليها فما أجد من يفعل ذلك » من كلامه : من فضل الشعر أنه لم يكذب أحد قط الا اجتواه الناس الا الشاعر فانه كلما زاد كذبه زاد المدح له ثم لا يقنع له بذلك حتى يقال له :أحسنت والله ٠ توفي سنة ٣٤٦ هـ ٠

٢ ـ محمد بن الحسن الشهيد القرقيسياني

٣ ـ ابن مرار : ولوه (بنو هاشم)مصر عندما كانوا في سلطانهم ، فأصاب بها مالا عظيماً ، وكانت له أمَة يقال لها (عتمة) كان يهواها ربيعة بن ثابت الرقي الأسدي وبلغه خبر ربيعة مع جاريته فأحضره وعرض عليه أن يهبها له فقال : لا تهبها لي فان كل مبذول مملول فأكره أن يذهب حبها من قلبي ، ولكن دعني أواصلها هكذا فهو أحب اليّ ٠

محمد ناشد مشوح